عود على بدء

كتاب البخلاء للجاحظ

للاستاذ رشدي الحكيم

كانت مجلة « المشرق » الغراء نشرت لي في الجزئين الرابع والخامس من المجلد الثالث والخمسين مقالاً عن كتاب البخلاء للجاحظ طبعة دار اليقظة العربية بدمشق قلت فيه ان هذه الطبعة خير طبعة اخرجت للناس وقلت ان هذا الكتاب على تعدد طبعاته [التي ناهزت العشر] وما بذل من الجهد في تحقيقه لا يزال فيه عبارات غامضة لم يعرها الصواب نوره يعوزها تحقيق ادق وتصحيح اتم حتى يجيء الكتاب كما املاه مؤلفه شيخ الكتاب عمرو بن بحر الجاحظ ، ثم اوردت ملحوظاتي ذاكراً اصل العبارة وما ارجح انه الصواب فيها .

وقبل نشر هذا النقد ظهرت طبعة اخرى للكتاب بتحقيق العلامة الدكتور طه الحاجري وتعليقه اصدرتها دار المعارف بمصر وقد اطلعت عليها بأخرة وقرأتها قراءة تدقيق وتبين فرأيت ان هذه الطبعة قد غيرت في وجه سائر الطبعات التي سبقتها لان المحقق المفضال اطلع على مخطوطتين لم يُطلع عليهما فيما قبل احداهما مخطوطة كبريلي الوزير العثماني والاخرى مخطوطة باريس وهي ناقصة لا تحتوي الا على نحو ثلث الكتاب كما انه رجع الى مصادر كثيرة غير مباشرة من كتب الادب في تصحيح العبارات وذيل الكتاب بتراجم مستفيضة لمعظم الاعلام الواردة فيه وجلهم من الاعلام الذين اغفل المؤرخون الترجمة لهم ولكن المحقق نقب عنهم في مصادر كثيرة حتى اهتدى اليهم ، كما فسر الكلمات الغامضة والادوات والمصطلحات العمرانية مما كان يستعمل في ذلك العصر واغفلته المعاجم وهذا عدا الفهارس العديدة التي ذيل بها الكتاب لاسماء الاشخاص والاماكن والاطعمة والادوات والشعر حتى انصاف الابيات وحتى المراجع وهذا الذيل الذي هو ذيل الطاووس يربي على حجم الكتاب .

وقد جاء الكتاب وذيله مجلوا في طبعة دار المعارف بالورق الجيد قطعة

فنية وتحفة انيقة تكاد تكون الحسناء التي عدمت الذام لو ان الدكتور اكل فضله فضر الكلمات اللغوية ايضا.

وقد لحظت ان كثيرا من المآخذ التي أوردتها في نقدي لطبعة دار اليقظة العربية قد جاء على الصواب في حين ان المؤلف لم يطلع على ما كتبت.

ولكني وجدت في الطبعة الجديدة عبارات لا يزال في نفسي منها ما في نفس القراء من حتى ورأيت ان اعرض رأيي فيها فيما يلي خدمة لهذا الكتاب الجليل الجميل الذي يعد من امهات كتب الآداب العربية.

ص ١ — (لأجعل الهزل مستراحا والراحة جماما) والراحة والجمام في معنى واحد وربما كانت الراحة محرفة عن المزاحة والمزاحة المزاح.

ص ٢ — (وما هذا السبب الذي خفي به الجليل الواضح وادرك به الجليل الغامض) ولعل الجليل الثانية معدولة عن الضئيل او الخفي.

ص ٣ — (وربما ظن ان قد فطن له وعرف ما عنده فوه شيئاً لا يقبل التموه ورقع خرقاً لا يقبل الرقع) ضبطت (خرقا) بضم الخاء والصحيح فتح الخاء.

ص ٣ — (ودلت على حقائق المتموهين وهتكت عز امتار الادعياء.) ولعلها وهتكت من استار الادعياء..

ص ١١ — (وقد ختم بعض الائمة على مزود سويق وختم على كيس فارغ وقال: طينة خير من طَنَّة) وربما كانت (خير من ظَنَّة بالظاء مكسورة او (طَيْنه خير من طيه) من طان الكتاب اذا ختمه بالطين.

١٢ — لا يغترن احد بطول عمره وتقوس ظهره ورقة عظمه ووهن قوته ان يرى اكرومته ولا يخرجه ذلك الى اخراج ماله من يديه وتحويله الى ملك غيره) وربما كانت العبارة (ان يرى اكرومته على سواه).

١٥ — عليك بطلب الغنى فلو لم يكن لك فيه إلا انه عز في قلبك وشبهة في قلب غيرك) وعندي ان الجملة (وشباة في قلب عدوك) ومن جملة معاني الشباة الحد وابرة العقرب.

١٨ — ورأيت انا حمارة منهم زهاء خمسين يتغدون على مباقل بحضرة قرية

الاعراب في طريق الكوفة وثم حجاج) ولعل الصواب فيها (ورأيت انا جمارا او جماعة منهم) والجمار الجماعة .

٢١ — (فأن وجد قيم البستان رمى اليه بدرهم ثم قال اشتر لي بهذا او اعطني بهذا رطبا) ضبطت اشتر بكسر الراء من الاشتراء والاولى ان تكون بجزمها فعل امر من الاشتيار بمعنى القطف والجني .

٤٢ — (والجدي بعشرة دراهم انما ينكر عندنا بالبصرة لكثرة الخير ورخص السعر فاما في العساكر فأن انكر ذلك منكر فانما ينكره من طريق رخصه) ربما كانت العساكر محرفة عن الدساكر بمعنى القرى .

٥٩ و٦٢ — (واما ابو محمد الحرامي عبد الله بن كاسب كاتب مويس وكاتب داود بن ابي داود) وجه الصواب فيها (دُوَاد بن ابي دواد) لا داود ودواد بن ابي دواد ورد له ذكر في الجزء الاول من البيان والتبيين ص ١٠٣ تحقيق عبد السلام محمد هارون .

٦١ — (ما اخوفني ان اكون قد قصد الي بقول ما اخوفني ان يكون الله في سمائه قد قصد الى ان يفقرني) وربما كانت كلمة بقول معدولة عن (يقول) بالنون والقول بالضم المملكة .

٧٤ — (واطعموهم ما يعرفون فأنه انجع واشفى للقرم)ربما كانت (واطعموهم ما يعرقون) بالقاف من عرق العظم اكل ما عليه من اللحم يدل على ذلك ما جاء بعدها من انه (اراد ان يكيدهم بالتزيد ويملأ صدورهم بالعراق) والعراق العظم دون لحم او بلحم.

٨٥ — (ومحبة الساكن ان يشغل الله عنه المسكن كيف شاء ان شاء شغله بعينه وان شاء بزمانه وان شاء بجبس وان شاء بموت) بزمانه محرفة عن بزمانة بمعنى العاهة لا ان يشغله بالزمن .

٨٦ — (وربما اخذهم ومعه امرأة يفجر بها فيجعل استئجار البيوت وتصفح المنازل علة لدخولها والمقام ساعة فيها) وعلق المحقق على هذه الجملة بقوله (ولعلها كما يدل السياق (وربما اخذ [المفتاح] منهم) وارى ان الجملة (وربما جاء احدهم ومعه امرأة الخ) .

٨٦ — (وربما بلغ من استضعافه واستثقاله لامراء الكراء اذ يدعي ان له شقيصا وان له يدا ليصير خصماً من الخصوم) يغلب على الظن ان استضعافه محرفة عن استظامه .

٨٨ — (ومن اتخذ دارا فقد اقام كفيلا لا يخفر وزعيماً لا يغرم) ولعلها (وزعيما لا يغر) .

٩٦ — (وهو ان تحضر هذه الزيادة من الخبز على طبق ويكون قريباً بحيث تناله اليد فلا يحتاج احد مع قربه منه الى ان يدعو به ويكون قربه من يده كثرة على مائدته) الصواب (كثرّه على مائدته) الكاف هنا للتشبيه والثر التفريق والتبديد ويكون المعنى ان وضع الخبز على طبق قريباً من يد الآكل مثل تفريقه على المائدة .

٩٧ — (وكانوا يعلمون ان احضار الجدي انما هو شيء من آيين الموائد الرفيعة وانما جعل كالعاقبة والخاتمة وكالعلامة لليسر والفراغ) لعل كلمة الفراغ معدولة عن الفرع والفرع المال الطائل المعد .

١٠٢ — وكان اذا دخل الصيف وحر عليه بيته اثاره حتى يغرق المسحاة ثم يصب عليه جرارا كثيرة من ماء البئر ويتوطؤه حتى يستوي فلا يزال ذلك البيت باردا ما دام نديا فاذا امتد به الندى ودام برده بدوامه اكتفى بذلك التبريد صيفته . وان جف قبل انقضاء الصيف وعاد عليه الحر عاد عليه بالاثارة والصب وكان يقول : خيشتي ارضي وماء خيشتي من بئري) ولعل الجملة (وكان يقول خيشتي ارضي) كما قال بعد (من بئري) .

١٠٣ — (وقد يأكل الناس القت قذاها والشعير فريكا) وارى ان قذاها معدول بها عن (قراحا) والقراح بمعنى الخالص .

١٠٥ — (وجعلت ما لا رقعة له ممحاة لي وللجارية اذا نحن قضينا حاجة الرجال والنساء) ممحاة ربما تكون محرفة عن مسحاة وهي ما يسحى به من سحى الطين قشره .

١٦٧ — (ذلك لان الطعام يسكر ويخدر ويختر ويبل الدماغ ويبل العروق

ويسترخي عليه جميع البدن) وربما كانت العبارة (ويثل الدماغ ويثل العروق) بمعنى يهدم والقائل يرمي الى ذم الطعام لا الى مدحه.

١٣٣ — (وها هنا اموال باسمي ولك شطرها واموال باسمك ولي شطرها وصامت في منزلي وصامت في منزلك لا نعرف فضل بعض ذلك على بعض وان طرقنا امر الله وكدت الحرب بين هؤلا. الفتية وطال الصخب بين هؤلا. النسوة) ولعل وكدت محرفة عن وقدت كما يقتضيه السياق .

١٣٤ — (إنك ان اطعمتهم اليوم البرني اطعمتهم غدا السكر وبعد غد الهلياثا ثم يصير ذلك بعد ايام الجمع في سائر ايام الاسبوع ثم يتحول الرطب الى الغدا. ثم يؤدي الغدا. الى العشا. ثم تصير الى الكسا. ثم الاجدا. ثم الحملان ثم اصطناع الصنائع) الغالب ان (الاجدا.) محرفة عن الاعدا. يؤيد ذلك ان الحملان ما يحمل عليه من الدواب في الجبة خاصة.

١٣٧ — (وكان شديد العقل شديد العارضة)والعقل لا يوصف بالشدة ولعلها محرفة عن (سديد العقل) بالسين.

١٤٣— (وما كان من المسامير وقطع الحديد فللحدادين وما كان من القراطيس فللطراز وما كان من الصحف فلرؤس الجرار) الاقرب ان تكون كلمة الطراز محرفة عن (فللظران) والظران الحجر يقدح به اي ان القراطيس هذه توضع في جانب الظران عند قدحه لتساعد على اشعال النار والطراز علم الثوب والموضع الذي تنسج فيه الثياب الرفيعة والقراطيس الملتقطة من كساحة الدار لا تكون عادة من طراز يستعمل للطراز.

١٥٥ — (تراثه جنة للوارثين اذا اودى وجثمانه للرب والدود)

وربما كانت جنة محرفة عن تهبة .

(وقريت في مقرىً قلائص اربعا وقريت بعد قرىً قلائص اربع)

ربما كان الشطر الاول

وقريت قبل قرى قلائص اربعا

يؤيده ما جا. في الشطر الثاني

١٦٥ — (وقالت عائشة في حبة عنب «ان فيها لمثاقيل ذر» ولعل الصواب « لمباقل ذر » بمعنى ان الذر يستفيد منها لغذائه كما يستفيد الناس من المباقل.

١٦٧ — (زمن خزون وبوارث شغون وكاسب حزون) والاوجه ان يكون «وكاسب خزون» بالخا. المعجمة من الخزن .

١٦٩ — (فان نحن جعلنا لابتدائه جوابا وجعلنا لجوابه الثاني جوابا خرجنا الى التباتر وصرنا الى التخاير) وارى ان التخاير محرفة عن التعاير بالعين.

١٦٩ — (ومتى قامت اخلاطه على الاعتدال وتكافأت خواطره في الوزن لم يعرف من الاعمال الا الاقتصاد ولم يجد افعاله ابدا الا بين التقصير والافراط) وارى ان الجملة (ولم يُجر — بالبا. — افعاله) .

١٦٩ — (فدع عنك خلطة الامعة فانه حارض لا خير فيه) لعل حارض معدولة عن خارص بالصاد المهملة بمعنى حازر اي ليس على يقين من امره.

١٧٠ — (لان ابواب تدبير العاقل وحيله معروفة وطرق خواطره مسلوكة ومذاهبه محصورة معدودة وليس لتدبير الاحمق وحيله جهة واحدة ومن اخطأها كذب) سياق الكلام يدل على ان الصواب (احصاها) لا (اخطأها).

١٧١ — (وسواء جاع فظلم واحفظ وعسف ام جاع فكذب وضرع) كلمة احفظ وان كانت مجزية هنا ولكن كلمة خبط اقرب الى سياق الكلام لتتسق مع جارتيها الظلم والعسف .

١٧٣ — (فأبنا جعلك معبرا لمدرك حاجته ومركبا لبلوغ محبته) قد تكون (محبته) محرفة عن مغبته وللاولى وجه ايضاً .

١٧٨ — (لكانت حيلهم في الناس اشد تغلغلا واعرض واسرى في عمق البدن وادخل الى سويداء القلب) ارى ان اعرض محرفة عن اعرق كما يقتضيه سياق الكلام .

١٧٨ — (ولو اتخذت الحيطان الرفيعة الثخينة والاقفال المحكمة الوثيقة ولو اتخذت المارق والجواسق والابواب الشداد) ربما كانت (المارق) محرفة عن المحاوز جمع محوز من حاز المال اذا جمعه وضمه اليه .

١٧٩ — وقال عمر: «لفارس الشفارق والحوض» هي الشبارق بالبا. ما قطع من اللحم صغارا وطبخ .

١٨٠ – السويق (من عدد المسافر وطعام العجلان وغذاء المبكر وبلغة المريض يسرو فؤاد الحزين ويرد من نفس المحدود) ربما تكون (المكدود) وهو المتعب .

١٨٠ – (وقيل لبعض هؤلاء اللهامظة والمستأكلين والشناغيف والمقممين) ربما كانت الشناغيف محرفة عن الشناقيق جمع شنقناق وهو الداهية .

١٨٢ – (ولكني خلقت اذا مال فاجل بعد ذلك او انيل)
قد تكون رواية الشطر الاول من البيت :

ولكني خلقت اذا مال

بمعنى سانس للمال كما في معاجم اللغة .

١٨٥ – (ان التواني انكح العجز بنته) .

لعل هذا الشطر من البيت :

اذا ما التواني انكح العجز بنته

١٨٧ – (احذر اعطاء المخدوعين وبذل المغبونين فان المغبون لا محمود ولا مأجور) الاولى ان تكون (عطاء المخدوعين) لا اعطاء .

١٨٨ – (اللهم لا تثر لي ماء سوء فاكون امرأ سوء) صوابه (اللهم لا تنزلني ماء سوء) .

١٩١ – (وقد ترى شنف الفقراء للاغنياء وتسرع الرغبة الى الملوك وبغض الماشي للراكب) ربما تكون العبارة (وتسرع الرعية الى الملوك) والتسرع يستعمل في الشر .

١٩٢ – (ومن طمع في السلامة من غير تسلم فقد وضع الطمع في موضع الاماني وانما ينجز الله الطمع اذا كان فيما امر به) لعلها (وانما يجيز الله الطمع).

١٩٥ – (لا تعينني على الزمان ولا تواسيني ببعض مالك ولا تتفرج لي عن شيء) اظن ان تتفرج محرفة عن تتفرغ بالعين المعجمة .

٢٠٠ – (وادركه ما يدرك المنتين من التيه فلم يحملها (خابية فارغة) فكان يركلها ركلة فتدحرج وتدور بياغ حمية الركلة ويقوم من ناحية كي لا

يراه انسان ويرى ما تصنع) الاصح ان تكون (ويرى ما يصنع) .

٢٠٢ — (قال : ينس العيش هذا ليس [هذا] عيش آل الخطاب) هـذا الثانية زادها المحقق في حين ان الكلام تام دونها واسم ليس معلوم من الجملة التي سبقتها .

٢٠٤ — (ولم ار لشهواتي تدبيرًا ولا لشوهي صبرا) وفي رأيي ان صواب الجملة (ولم ار لشهواتي تدبيرًا ولا لشره صبرا) .

٢٠٤ — (وكان سالم بن قتيبة يركب بغلة وحده ومعه اربعة آلاف مرابطة) ربما كانت (يركب بغلة واحدة) بمعنى انه لا يداول بينها وبين غيرها ولا يبدلها.

٢٠٩ — (فانا لا اتكلم في الولايات ولا اتكلم في الدراهم من قلوب الناس) لعلها (من جيوب الناس) .

٢٢٧ — (جعلنا الالا والرجام وطخفة لهـا فاستقلت فوقهن اثافيا)

وربما كان الشطر الاول :

(جعلنا الألا والرجام وطخفة)

فالالا شجر اخضر والرجام الحجارة وطخفة بالها لا طخفة نوع من الشجر وهذه الثلاث اثافي للقدر .

٢٣٣ — (رب نار بت ارقبها تقضم الهند والغـارا)

ضبطت تقضم بكسر الضاد وهي بفتحها من باب سمع .

٢٣٦ — (ابا ارب كيف القرابة بينكم

واخوالكم من لحم اكفالهـا عجر)

قد تكون عجر محرفة عن بجر بمعنى ممتلئة .

٢٦٨ — فات المحقق ان يشير في ترجمة سهل بن هارون الى ابيـات له في الحديق ذكرت في البيان والتبيين في الجزء الثاني ص ١٩٦ وهي :

تكنفني همـان قد كسفا بالي وقـد تركا قلبي محلة بلبال

هما اذريا دمعي ولم تذر عبرتي ربيبة خدر ذات سمط وخلخال

ولكنني ابكي بعين سخينة على جلل تبكي له عين امثالي
فراق خليل او شجي يستفزني لخلة سوء لا يقوم لها مالي
فراكبدي حتى متى القلب موجع لفقد حبيب او تعذر افضال
وما العيش الا ان تطول بنائل والا لقاء الخل ذي الخلق العالي

وفي هذه الابيات كما في الابيات التي مدح بها يحيى بن خالد البرمكي التي منها :

عدو تلاد المال فيما ينوبه منوع اذا ابقاه منعه كان احزما

ما يدل على خلق سهل وشخصيته وانه لم يكن بالمنزلة التي وضع فيها من البخل والشح فانظر اليه كيف يتلهف على سد خلة واسداء معونة وكيف يمدح يحيى بن خالد بكونه يمنع اذا ما كان المنع احزم فلم يكن اذن رجلاً شحيحاً بخيلاً كز اليد ولا مبذراً مسرفاً متلافاً يبدد المال تبديداً في غير وجهه بل كان حكيماً متزناً يضع الامور في نصابها ويخبأ المال لاسداء مكرمة وكسب محمدة .

٣١٣ — (اما بعد فالسلام على عهدك وداع ذي ظن بك) والصواب (ذي ضن بك) بالضاد المعجمة .

٣١٤ — (ارضاً اذا سار بها الجيش بكى
ما سارها قبلك من انس ارى)

والصواب الجيس وهو الجبان ولم نسمع ان جيشاً برمته صار يبكي اذا ما وقع في آزمة .

٣٣٥ — علق المحقق على كلمة خواجركه (بأنه لم يستطع انْ يجد من المعاني المحتملة لهذه الكلمة فيما اتيح لهُ من المعاجم الفارسية ما يتفق مع سياقها) واقول لعلها مشتقة من كلمة خام بالفارسية بمعنى النيء كما ان (مزه) بالفارسية بمعنى الذوق والطعم حسبما رأيت في المعاجم التركية التي لديّ وكأن المقصود بها المآكل النيئة كاللحم غير المطبوخ وغير المشوي وغير ذلك مما يوضع على مائدة الشراب من النقل .

٣٣٧ — شك المحقق في الذي رواه ابو عبيدة (عن بخل خالد السدري على الطعام في حين ان ابن عبد ربه عده في الاجواد) ولا ارى تناقضاً بين الخبرين اذ قد يكون بخيلاً بالطعام جواداً فيما سواه كما هو الحال مع عبد الملك ابن قيس الذئبي (البخلاء ص ١٤٩) والناس اخياف .

٣٥٤ — واضيف على ما ترجم به المحقق للسدري فاقول ربما كان هناك سدري آخر ورد له ذكر في طبقات الشعراء لابن المعتز ويظهر انه ابن اخ لبشار ابن برد وانه كان راوية للسيد الحميري .

٣٥٦ — رجح المحقق ان المقصود بالخيش مروحة الخيش التي تستعمل لتبريد الجو ويظهر ان الخيش يقصد به شيء آخر فقد جاء في كتاب الحضارة الاسلامية (الجزء الثاني ص ١٥٣) ان في عهد المنصور العباسي اتخذت طريقة اخرى للتبريد فكانوا ينصبون الخيش الغليظ ولا يزالون يبلونه بالماء فيبرد الجو وكان الخيش ينصب على قبة . ويحكي المقدسي انه رأى في دار عضد الدولة بشيراز بيوت الخيش يبلها الماء على الدوام بواسطة قني حولها من فوق وكانت حراقات دجلة التي يستعملها رجال الدولة في غدوهم ورواحهم يعد فيها الثلج ويعلق عليها الخيش المبلل بالماء وكانت ترخى على الخيش ستور الكرابيس . ثم ذكر المروحة ووصفها مما يدل على ان الخيش غير المروحة وكان كلاهما او احدهما يستعملان في الدور الرفيعة .

٣٧٢ — ترجم المحقق محمد بن الجهم وفاته ان يذكر انه ألف كتاباً للمأمون في الاختيارات قريب المأخذ صحيح المعاني جداً وكان اميناً جليل القدر عالماً بالمنطق والتنجيم (اخبار الحكماء للقفطي ص ١٨٦) .

٤٠١ — الفالوذج (فتات البر بلعاب النحل بخالص السمن ما عاب هذا مسلم) لعلها (لباب البر) لا فتاته .